

تفسير ابن كثير

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهي مخلوقة من ربوبية مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال : { أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون } أي أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئا ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى : { يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدرُوا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز } أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم الذبابة شيئا من حقير المطاعم وطارث لما استطاعوا إنقاذه منها فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر ؟ ولهذا قال تعالى : { لا يخلق شيئا وهم يخلقون } أي بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل { أتعبدون ما تنحتون } الآية .

ثم قال تعالى : { ولا يستطيعون لهم نصرا } أي لعابديهم { ولا أنفسهم ينصرون } يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل E يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله : { فراغ عليهم ضربا باليمين } وقال تعالى : { فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون } وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل في يعدوان فكانا المدينة مرسلا عليه صلى الله عليه وسلم رسول قدم لما أسلما قد شابين وكانا هما B الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتؤوا لأنفسهم فكان لعمر بن الجموح وكان سيذا في قومه صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخان به بالعذرة فيجئ عمر بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له : انتصر ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضا حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في حبل في بئر هناك فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال : .

تالله لو كنت إلها مستدن لم تك والكلب جميعا في قرن .

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيدا B وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه وقوله { وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم } الآية يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها وسواء لديها من دعاها ومن دحاهها كما قال إبراهيم { يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا } ثم ذكر تعالى أنها عبید مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم بل الأناس أكمل منها

لأنها تسمع وتبصر وتبطلش وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك وقوله { قل ادعوا شركاءكم } الآية أي استنصروا بها علي فلا تؤخروني طرفة عين واجهدوا جهدكم { إن وليي اﷻ الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين } أي اﷻ حسبي وكافي وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألجأ وهو وليي في الدنيا والاخرة وهو ولي كل صالح بعدي وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه { إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنني أشهد اﷻ واشهدوا أنني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * } إنني توكلت على اﷻ ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم { وكقول الخليل { أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآبائكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين } الايات وكقوله لأبيه وقومه { إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون } .

وقوله { والذين تدعون من دونه } إلى آخر الآية مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذلك بصيغة الغيبة ولهذا قال { لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون } وقوله { وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون } كقوله تعالى : { إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم } الآية وقوله { وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون } إنما قال { ينظرون إليك } أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صورة مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك فعبر عنها بضمير من يعقل وقال السدي : المراد بهذا المشركون وروي عن مجاهد نحوه والأول أولى وهو اختيار ابن جرير وقاله قتادة